المتوحد القديس بولس البسيط

ملكة حبيب يوسف

يوسف حبيب

بسم الآب والابن والروح القدس الاله الواحد آمين ☩

غبطة أبينا الطوباوى المكرم رئيس الأساقفة

الأنبا كيرلس السادس

بابا الاسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية ١١٦

أطال الله حياته ومتعه بالصحة

المتوحد القديس بولس البسيط

مترجم من كتاب LES SAINTS D'EGYPTE

R. P. Paul Cheneau d'Orléans

Jérusalem 1923

والجزء الثانى مترجم إلى العربية من

APOPHTEGMA PATRUM

أقوال الآباء من مخطوطات نابولى باللغة القبطية باللهجة

الصعيدية ، جزء رقم ١٧ / NB. IB ٤٨٤

عن الترجمة الفرنسية بقلم M. Chaine

مقدمة

هذه السيرة الشيقة تبدى للقراء بجلاء مراحم الرب وكيف يزيل هموم بنيه، ويكشف غمومهم، ويقدس أرواحهم، ويمنحهم المواهب الجليلة والنعم الروحية السماوية الكبيرة والأنوار الباهرة العظيمة.

ومن ناحية تكشف لنا عن أجزاء هامة من حياة كوكب البرية القديس العظيم الأنبا انطونيوس حتى يخال للقارىء معها أنه يرى جوانب مضيئة من شخصية القديس العظيم الأنبا انطونيوس الذى ملأت شهرته مشارق الأرض ومغاربها، وما يزال القارىء يقتبس قبساً من أنواره حتى تومض ببريقها أخرى تجلو شخصيته وتدنو منها إلى القلوب جليل بركته.

فنقدم هذه السيرة الشيقة لينتفع بقراءتها الجميع، بركة صلاة هذا القديس والقديس الأنبا انطونيوس تشملنا، ولعظمته تعالى الشكر دائماً آمين.

الجزء الأول

١- زوجة خائنة

كان بولس فلاحاً متواضعاً ذا طباع بسيطة وبلا لوم. وكان قد تزوج لأجل تعاسته بامرأة جميلة جداً، ولكنها لم تكن جادة، فقد اطلقت لنفسها العنان وكانت طرقها تدعو إلى انتقادها كثيراً. وظلت تخونه لمدة طويلة دون أن يعلم. وما كان القديس يستمع إلى الألسنة الشريرة؛ فلم يرد أبداً أن يصت إلى الاشاعات التى كانت تدور حول شريكته غير المستحقة، وكان لبعضها أساس من الصحة. ولم يقتنع إلا عندما ضبطها متلبسة فى الزنا.

وبدلا من أن يطرد الخائنة، كتم عارها سراً، ولكى يوفق بين كرامته كزوج مهان وبين اشمئزازه من الفضيحة، قرر أن يترك منزله ويذهب إلى الصحراء ليبحث وسط المتوحدين عن السلام الذى لم يستطع أن يجده فى زيجة غير متجانسة. وكان عمره حينئذ ستين سنة.

٢ ـ الاختبارات التى أجراها

الانبا انطونيوس

وكانت وقتئذ معجزات القديس العظيم انطونيوس وفضائله البطولية موضع حديث كل الناس. فذهب بولس لمقابلته فى الجبل الذى كان مقيماً فيه ؛ وقرع الباب .

« من يقرع الباب هكذا ؟ »

« بولس ، فلاح فقير »

« وماذا تريد منا ؟ »

« أريد ان أصير راهباً » .

« ما سنك ؟ »

« سنى ستون سنة » .

« ستون سنة ! لا يمكن . عد إلى محراثك وإلى حقولك أيها الرجل الشجاع . انك لن تستطيع أبداً ان تتغلب على شدائد حياة التوحد » .

« ولِمَ لا ؟ إذا أرشدنى أحد فسوف استطيع ذلك مثل أى أحد آخر » .

« اقول ان سنك الكبير يجعلك لا تصلح للرهبنة . ومع كل إذا كنت مصراً تماماً ، فاذهب واقرع باب أحد الاديرة فى السهل حيث يوجد اخوة يجذبونك بقدوتهم ؛ أنا هنا وحدى ولا آكل سوى مرة واحدة كل خمسة عشر يوماً » .

وعندما قال الانبا انطونيوس هذا الكلام ، تركه وحبس نفسه لمدة ثلاثة أيام فى مغارته . فلم يتحرك بولس ، وجلس بهدوء عند المدخل منتظراً الوقت حينما يبدو للقديس أن يظهر من جديد . وفى صباح اليوم الرابع فتح الباب ، ورأى الانبا انطونيوس زائره ، فقال له :

« اذهب من هنا أيها الشيخ ؛ لماذا تضايقنى هكذا ؟ انك لا تستطيع ان تسكن فى هذا المكان » .

« وأنا لا أريد أن أموت فى غير هذا المكان » .

فلما رأى الانبا انطونيوس ان الرجل المسكين لم يحضر معه أية مؤونة ، فكان بالتالى صائماً منذ أربعة أيام ، خشى أن يسقط من الضعف ، فبادره قائلا :

« أيها الشيخ يمكنك أن تخلص نفسك إذا كنت تطيع وتنفذ بوداعة كل ما آمرك به ».

فرح بولس فرحاً شديداً، وقال شاكراً:

« يا أبي سوف أفعل كل ما تريد ».

« ابق إذاً هنا عند الباب، وصل بينما أكون داخل مغارتي إلى ان أرتب لك عملا ».

واغلق الأنبا انطونيوس الباب دونه؛ ولكن من حين إلى آخر كان يراقب هذا الفلاح غير العادي من منارة صغيرة؛ ولمدة أسبوع كامل لم يغير مكانه، مع أنه كان في بعض الساعات معرضاً لأشعة الشمس المحرقة. وبعد ثمانية أيام فتح المغارة، وأخذ الأنبا انطونيوس خوصاً ووضعه في الماء ثم قال لبولس: « خذ اضفر حبلا مثلي ».

فاشتغل الشيخ حتى الساعة التاسعة وصنع حبلين طول كل منهما ثمانية أمتار[1]. ففحص الأنبا انطونيوس العمل، ولكي يمتحن تلميذه الجديد، قال له بلهجة تنم عن عدم الرضا:

---

(١) خطوة مصر مقياس. وهذا المقياس القديم يعادل ٥٣ سم تقريباً.

« هذه صناعة رديئة جداً، افسخ لي كل هذا، واضفره من جديد ».

فأخذ الشيخ المسكين الصائم منذ أسبوع يفك عمله دون أن ينطق بكلمة، ونفذه من جديد بتعب كثير جداً، لأن الخوص كان قد تجعد في كل اتجاه من جراء الضفيرة الأولى.

لم تظهر على وجه الحارث الذي لفحته أشعة الشمس اية علامة من علامات الضجر، ولم ينطق بأية كلمة تذمر أو اعتراض. فتأثر الأنبا انطونيوس، وعند الغروب جاء إليه وقال له:

« ربما تريد ان تأكل بعض الخبز ».

« كيفما اردت يا ابانا ».

« إذاً أعد المائدة ».

فأطاع بولس الكلمة. وكان الأنبا انطونيوس يتعجب. وأحضر اربعة ارغفة وزن كل واحد منها ستة أوقيات، ثم وزن مزموراً وتبعه ببعض الصلوات وقال لوميله بهدوء: « اجلس ولا تأكل حتى أعود ».

وبعد بضع ساعات حضر الأنبا انطونيوس من جديد؛ ولم

يكن بولس قد تحرك من مكانه . فقال له : « قم يا أخ ، صلِّ صلاتك واستريح » .

فاطاعه بالضبط . وفي الغد جلس الاثنان على المائدة . فأخذ الأبا انطونيوس رغيفاً وأكله . وأشار إلى الحارث العجوز ففعل مثله ؛ ولم يستطع ان يأكل بسرعة بسبب قلة اسنانه . فانتظر القديس المتوحد بصبر حتى إنتهى القديس بولس من أكله ؛ ثم رجاه ان يأخذ رغيفاً آخر .

فرد القديس بولس قائلاً : « يا ابي بل أفعل مثلك ، اعطني قدوة » .

حينئذ قال الأبا انطونيوس : « اما أنا فيكفيني رغيف واحد ، لاني راهب » .

« وأنا ايضاً يكفيني رغيف واحد ، لاني أريد ان اصير راهباً » .

كان المعلم الصلب الذي يدربه هكذا على حياة الطاعة الرهبانية ، لا يلاطف في شيء هذا الطالب الذي تخطى الستين من عمره . فكان يتعمد مضاعفة التجارب ويثوّها باستمرار ، وكانت هذه التجارب جميعها مؤلمة لدرجة أنها تبدو تحدياً للبديهة والصبر العظيم . واليكم بعض الأمثلة :

ذات يوم حضر بعض المتوحدين من بعيد لكي يستشيروا ابا المتوحدين . فنادى بولس ، وأمام الحاضرين ، أمره ان يكسر على الصخرة إناءً مملوء عسلاً ؛ ثم كلفه ان يجمع هذه المادة اللزجة وأن يحرص الا يترك فيها أي أثر من الأجسام الغريبة .

وفي مرة أخرى ، ألزمه ان يجلب ماء من الصباح حتى المساء دون توقف ، وأمره ان يرش الماء على الأرض اولاً بأول .

وفي يوم آخر يفك خياطة ردائه كلها ثم يعود فيخيطه من جديد .

وفي يوم آخر أمره ان يفك عشرين سلة من التي صنفرها في الأيام السابقة ، ثم يعود فيصنفرها في الأيام التالية .

٣ - لياقة القديس بولس

وبعد هذه التجارب الشديدة التي نعجب منها، أصبح الحارث السابق راهباً حقيقياً حسب رغبته الملحة ؛ فكان نموذجاً للطاعة المقدسة، وسرّ الله به لدرجة انه أعطاه موهبة اخراج الشياطين.

فأمام مثل هذا الرضا السماوي، لم يستطع الأنبا انطونيوس ان يؤجل قبول هذه النفس المختارة ضمن تلاميذه. فقال له ذات يوم مبتسماً :

« أيها الأخ إذا كنت تشعر في ذاتك ان عندك الشجاعة الكافية للثابرة على هذا الأسلوب في الحياة حتى يوم الممات، فقل لي ذلك بصراحة ».

فرد قائلاً: « يا أبي هل من شيء آخر تأمرني به ؟ واني أجد طاعة جميع أوامرك التي امرتني بها حتى الآن سهلة متقبلة ».

† † †

٤ - قبوله متوحداً

فقال الأنبا انطونيوس : « ان الماضي يكفيني؛ باسم يسوع المسيح اقبلك متوحداً ». وأمر القديس ببناء قلاية صغيرة للتلميذ الجديد بالقرب من مغارته، وأسكنه فيها قائلاً له هذه الكلمات اللطيفة .

« يا بولس البسيط جداً ها قد صرت راهباً الآن ؛ سوف تحيا وحدك منذ الآن، وسوف ترهب منك الشياطين ».

٥ ـ تحقيق المواهب للقديس بولس

ولم تتأخر نبوته عن أن تتحقق . ففي ذات يوم احضروا إلى القديس الأنبا انطونيوس شاباً يزبد مثل الكلب المسعور : كان به شيطان يعذّبه بعنف ويجعله يتفوّه بتجاديف فظيعة على الله . ففحصه المتوحد ثم قال لأسرته :

« ان هذا النوع من المرض ليس من اختصاصي ؛ انى لا استطيع شيئاً ضد هذا النوع من الشياطين ؛ هذا من اختصاص بولس البسيط » .

واقتاد الأنبا انطونيوس زائريه بلطف إلى مكان توحد تلميذه ؛ وصاح يقول له :

« أيها الأب بولس تعال بسرعة ، أرجـــوك اطرد حالا الشيطان الذى يعذّب هذا الشاب ، حتى يتمجد الرب » .

« يا أبى لماذا لا تخرجه أنت نفسك ؟ » .

« لأنى فى هذه الساعة عندى مشغوليات كثيرة أخرى » .

٦ ـ الأنبا بولس يخرج الشياطين

وعندما قال هذا الكلام رجع الأنبا انطونيوس . حينئذ صلى الأنبا بولس بعض لحظات ؛ ثم قام ، ووجهه مشرق، وأمر الروح النجس قائلا : « أخرج حالا من هذا الرجل ؛ ان الأنبا انطونيوس يأمرك بذلك » .

ولكن الشيطان أخذ يشتمه ويلعنه ويقول : « أيها المخادع العجوز ، أيها الشرير القبيح ، أنسمع جيداً ، لن أخرج منه » .

فأخذ بولس جلد الماعز الذى كان يغطى به كتفيه وضرب به المريض برفق وهو يكرّر هذه الكلمات: «أيها الروح الجهنمى اخرج ، اخرج بسرعة : « ان الأنبا انطونيوس يريد ذلك » .

فكان الشيطان يضاعف من شتيمته ويقول: « أنظروا إذن هذين الشيخين المتنعمين، هذين الرجلين الأكولين . أيها العجائز، ما هى إذن الشركة بيننا نحن الأرواح العالية وأنتم الصعاليك الجوعانين ؟ » .

وكان بولس يصيح : « إما ان تخرج أيها الروح النجس ، أو سوف أقدم شكواى إلى المسيح الذى غلبك » .

« مهما قلت فان أخرج ، كلا بالحقيقة لن اخرج » .

كان الوقت ظهراً . فترك الأنبا بولس المكان وصعد إلى قمة الجبل ، وكان واقفاً رافعاً نظره إلى السماء باسطاً يديه يقول :

« أيها الرب يسوع الذى صلبت أيام بيلاطس البنطى ، انى لا أبرح هذا المكان ، ولن آكل أو اشرب ، حتى يخرج الشيطان من هذا الجسد ويتركه الروح النجس » .

وما ان أنهى صلاته حتى ترك الشيطان فريسته صارخاً : « قف ، قف ، أنا عارج ، انى مضطر لذلك بالرغم منى . ان بساطة بولس وتواضعه يطردانى » . وهرب الشيطان فى شكل ثعبان كبير يزحف إلى ناحية البحر الأحمر .

٧ - موهبة المعرفة

وكان القديس بولس قد أخذ موهبة خاصة أخرى ، هى معرفة أفكار كل الرهبان الداخلين فى المكان المقدس . فذات يوم إذ نزل فى أحد الأديرة على ضفاف النيل فرأى راهباً وسط الرهبان الداخلين ، وكانت وجوههم منيرة وصحبهم ملائكتهم الحارسون ، وكان وجه هذا الراهب مظلماً وملابسه سوداء ، وكانت الشياطين تجره بسلسلة ، وكان ملاكه الخير يتبعه من بعيد حزيناً جداً .

فلما رأى الرهبان القديس بولس ثابتاً عند الباب ، سألوه ماذا كان يفعل هناك ؛ فكان رده الوحيد دموعاً غزيرة .

وعند الخروج من القداس ، عاد إلى مكانه يراقب كل الإخوة الواحد بعد الآخر وهم يمرون أمام عينيه لكى يتعرف على ذلك الذى أحزنته رؤيته جداً . وفجأة رآه متغيراً تماماً ، فكان يحيط به الضياء مثل الآخرين ، وكان ملاكه الحارس يصحبه سعيداً ، بينما كان الشياطين يقفون بعيداً مغتاظين ويهددون دون أن يقدروا على عمل أى شىء . فعند هذا المنظر أخذ القديس بولس

يسبح الرب . فتجمع الرهبان بين يديه فروى لهم الراهب قصته . قال :

« منذ بعض الوقت وبالرغم من كل نعم الله ، سقطت فى عادات مذمومة ، هى بقايا ماض حزين أندم عليه كل يوم . واليوم كانت تلاوة كلمات اشعيا النبى المعزية هذه :

« هلم نتحاجج يقول الرب . ان كانت خطاياكم كالقرمز تبيّض كالثلج . ان كانت حمراء كالدودى تصير كالصوف » . (اش ١ : ١٨)

حينئذ تفكرت أنا الخاطىء فى نفسى وقلت لله فى بساطة روحى : « أيها الرب يا من أتيت لأجل خلاص الخطاة ، حقق الآن وعد نبيّك : انى أعدك ألا أسقط ثانية ، ومنذ هذه اللحظة أبدأ حياة التوبة الجادة . »

وعلت فى أرجاء الدير ترانيم الشكر من أجل الأخ المسكين الذى رحمه الله رحمة واسعة .

كانت قد انقضت ثلاث سنوات على توبة الخاطئة الشهيرة تايس ، وكانت تعيش فى عزلة . وبالرغم من توبتها وتقشفها

كانت روحها دائماً قلقة : هل غفر الله لها ماضيها ؟ فاعترفت بعذاب ضميرها إلى الأب بفنوتى ، فجاء خصيصاً لكى يستشير القديس الأنبا أنطونيوس فى ذلك . فجمع أبو المتوحدين اخوته الحاضرين ودعاهم للصلاة حتى يرتضى الله أن يستجيب . فانسحب كل واحد منهم وتضرع إلى الله بالصلاة .

وفجأة رأى الأنبا بولس أقدم التلاميذ عرشاً فى السماء مزداناً بزينات ثمينة تحرسه ثلاث عذارى متألقات بالنور . فصاح وهو فى حالة دهش : « بلا شك ان هذا العرش العجيب معد لأبينا أنطونيوس » .

فرد عليه صوت حلو للغاية : « كلا ان هذا العرش الشريف مخصص لتايس الخاطئة التائبة » .

ويرجح أن تكون نياحة الأنبا بولس البسيط فى منتصف القرن الرابع .

الجزء الثانى

مترجم عن المخطوطة القبطية

١ - بصيرة القديس

يروى القديس بولس البسيط تلميذ الانبا أنطونيوس أنه ذهب إلى أحد الأديرة لزيارة الإخوة وخدمتهم . فتحدثوا معاً ثم ذهبوا إلى الكنيسة لإقامة القداس كالمعتاد . يقول :

« كنت أنظر إلى كل واحد من الداخلين وما كانت عليه روح كل منهم ، فقد كانت له هذه الموهبة من الله أن يرى الحالة التى تكون عليها روح كل أحد ، كما نرى وجوه بعضنا البعض . فعندما دخل الجميع رأى وجوههم منألقة ، يتقدمون فرحين ، وكان ملاك كل واحد منهم متهللا . ورأى فى الداخلين واحداً لونه أسود وجسده كله كان مظلماً ، والشياطين يحيطون به من كل جانب للتحفظ عليه ، وهم ممسكين به يجذبونه إليهم .

فأخذ القديس يبكى ويقرع صدره بيده مرات عديدة . وجلس عند باب الكنيسة وبكى طويلا على الانسان الذى ظهر له على هذه الحالة . فالذين رأوا هذا الأمر العجيب وموقف

الشيخ تجاه الرجل ، والدموع والنحيب ، إعترتهم رجفة فسألوه أن يخبرهم ماذا رأى ، وخشوا أن يكون قد رأى كل نقائصهم فبكى وانتحب لذلك .

ولما طلبوا منه أن يتقدم نحو ويبتعد حتى لا يقوم بالخدمة . وجلس خارجاً فى صمت يبكى بغزارة على ما أظهر له . وعند إنتهاء القداس انصرفوا من الكنيسة . وعندما كانوا ينصرفون نظر الأنبا بولس من جديد إلى كل واحد منهم إذ كان يعرف حالته عند دخوله ، وإذا بالذى رآه سابقاً اسود مظلماً يغادر الكنيسة بوجه باش وجسده كله مضىء يتألق ، والشياطين تبتعد عنه ، فأبدى القديس سروره وبارك الله بصوت عال قائلا :

« يا محبة الله للبشر التى لا ينطق بها ، يا لصلاحه تعالى ، يا لرحمته المقدسة ، يا لإحسانه الذى بلا قياس ! » ثم ركض وصعد إلى الدرج وصرخ قائلا :

« تعالوا أنظروا أعمال الله ما أعجبها ! انها جديرة بكل إعجاب . تعالوا أنظروا . ان الله يريد أن كل إنسان يحيا ويقبل إلى معرفة الحق . تعالوا اسجدوا وتعبدوا له قائلين : أنت وحدك لك سلطان مغفرة الخطايا . »

فهرع الجميع لكى يسمعوا . ولما التأم شملهم تحدث إليهم وروى لهم ما ظهر له قبل دخوله الكنيسة وما لاحظه ساعة خروجهم. فسألوا الرجل ليخبرهم بما طرأ له ، وكيف وهبه الله هذا التغيير العظيم . كما سأل الأنبا بولس الرجل علانية أمام الجميع حتى لا يخفى شيئاً من أفعاله . قال :

« وانى خاطىء عشت فى الزنا مدة طويلة . دخلت كنيسة الله المقدسة ، وسمعت قراءة اشعياء المكرم ، أو بالحرى سمعت الله يتكلم بواسطته :

« إغتسلوا تنقوا اعزلوا شر أفعالكم من أمام عينى كفوا عن فعل الشر تعلموا فعل الخير . أطلبوا الحق إنصفوا المظلوم إقضوا لليتيم حاموا عن الأرملة . هلم نتحاجج يقول الرب . إن كانت خطاياكم كالقرمز تبيض كالثلج . إن كانت حمراء كالدودى تصير كالصوف . إن شئتم وسمعتم تأكلون خير الأرض » (اش ١ : ١٦ - ١٩).

فكأنى بهم يقرأون هذا الفصل من سفر اشعياء النبى اليوم من أجلى ، أو بالحرى ان الله يتحدث إلىّ بواسطته . فحزنت جداً من الاعماق وكنت أئن فى نفسى . وقلت أمام الله : يا إلهى

أتيت إلى العالم لتخليص الخطاة ، فهذه الأشياء التى تعد بها الآن للخطاة ، تمهل لى فعلا أنا الخاطىء غير المستحق . انى منذ هذه اللحظة أعطى عهداً وأقرر من كل قلبى انى لن آتى منكراً ، بل أنكر الشر وأكون لك منذ الآن عاملاً بضمير طاهر . اليوم يا رب أسجد أمامك .

وبهذه الخلجات خرجت من الكنيسة مصمماً من أعماق روحى ألا أعود لفعل الشر أمام الله . »

فعندما سمعوا هذه الأقوال صرخوا بصوت عظيم نحو الله قائلين : « عديدة هى أعمالك يا رب وقد صنعتها جميعها بحكمة . »

من أقوال الآباء

إذا علمنا أيها المسيحيون من الكتب المقدسة ومن الوحي المقدس عظمة رحمة الله للذين يلتجئون إليه بحماس ، وكيف يتطهر الانسان من الخطايا السالفة بالتوبة ، وان الله أيضاً يحقق الوعود التي قطعها مع كل الخيرات دون أن يدين أحداً على خطاياه السالفة ، فلا نيأس من خلاصنا . فكما وعد باشعياء النبي ان الذين تدنسوا بالخطيـــة يغسلهم ويجعلهم أطهاراً مثل الصوف الأبيض والثلج ، فهو هكذا يعطينا خيرات أورشليم السمائية .

بهذا الأسلوب يتكلم أيضاً في النبي القديس حزقيال مؤكداً لنا بقسم اننا لن نخسر :

« حي أنا يقول السيد الرب إني لا أسر بموت الشرير بل بأن يرجع الشرير عن طريقه ويحيا. ارجعوا ارجعوا عن طرقكم الرديئة . » (حز ٣٣ : ١١) .

† † †

أودع بدار الكتب تحت رقم ٤٢٣٥ لسنة ١٩٧٠